

## مقالة

# ولاية الفقيه؛ بين النظرية والتطبيق

## المباني الفقهية والبعد التاريخي لولاية الفقيه عند المحقق الكركي

عبير شمس

⚠️ الأبحاث و المقالات المنشورة لا تعبر عن رأي «الأفاق» بالضرورة ، بل تعبر عن رأي أصحابها



ثم إيران جراء واقع الحال المتمثل بالفرصة الممنوحة للفقيه والاستفادة منها في نشر الوعي الديني، وإقامة العدل، والدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفقاً لخصوصية المجتمع. وهو عندما مارس دوره فيالدعوة والموعظة الحسنة وليس بالاضطهاد والتكفير، وهو ما يتبدى لدينا من خلال خلافه واعتراضه على اسماعيل الصفوي جراء سياسة القسوة التي اتبعها بحق المخالفين".

ويرى أن: النظر إلى الشروط التاريخية وأثرها في انتاج المعرفة، لا يعني أن الفتوى هي أسيرة لحظاتها التاريخية. قد يصح ذلك في مجال ما، ولكن نحن أمام نظرية تتصل بحدود علاقة الفقيه وحدود صلاحياته، وهي تبقى عابرة للزمن، وتعتبر عن اتجاه بل مدرسة فكرية في مجال الفقه.

أما الشروط الاجتماعية والتاريخية، فهي تعبر عن المرونة داخل هذه النظرية، وليس الصلاحية التاريخية للنظرية نفسها، وهو ما يسري على رأي المحقق الكركي في صلاحيات الفقيه، إذ شكل هذا الرأي اسهاماً فقهياً وفكرياً رائداً لدى الفقهاء الشيعة، وسنجد لاحقاً، اغناء للنظرية لدى العلامة النراقي، ولدى الإمام الخميني؟؛ حيث غدت نظرية ولاية الفقيه مع الإمام الخميني؟ تستند إلى دلالات عقلية ونقلية وتفسيرية، وأخيراً تقوم على استلزام التجربة التاريخية للمعصوم، وتستند إلى ثنائية العلاقة بين الفقيه الجامع للشرائط من ورع وتقوى وعدالة وسعة علم ومعرفة بأحوال الزمان والمكان وبين الشعب عبر الانخراط في المؤسسات التمثيلية وممارسة دوره في ظل دولة اسلامية وفقاً لمقتضيات الدين والدنيا".

ختاماً إنَّ المحقق الكركي خاض تجربة من أغنى التجارب ومن أكبرها في العصر الحديث على صعيد تشكيل الحكومة الإسلامية وتطبيق الشريعة عبر الوصول إلى الموقع الطبيعي للفقيه في المجتمع والدولة والذي يستلزم بواسطته أن يلي الأمر. وقد كان لتجربة المحقق الآثار الكبيرة وعلى مستقبل إيران وله يعود جزء من الفضل في إرساء التشيع واحتضان الشريعة في هذه البلاد والتي أصبحت بعد ذلك بمئات السنين في الصورة التي هي عليها الآن والتي ساهم في الوصول إليها المسار الذي شارك في تحديده المحقق نفسه. وعمل على إرسائه واستمراره الخلف الصالح من الفقهاء بإقامة الحكومة الإسلامية في إيران العام 1979م وقد كان الإمام الخميني؟ من عداد هذه القافلة.

صلاحيات الفقيه، مستنداً في إحدى استدلالاته على رواية عمر بن حنظلة عن الإمام الصادق عليه السلام، ومنها انطلق إلى صلاحيات الفقيه بالقول "أنه الفقيه الجامع للشرائط منصوب من قبل الإمام... وتجب مساعدته على إقامة الحدود والقضاء بين الناس". تقول الرواية «انظروا الى من كان منكم قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، فارضوا به حكماً. إلى آخر الرواية». خاصة نظرية ولاية الفقيه، سواء مع الشهيد الأول أو المحقق الكركي، أنها لا تقع في عرض الواقع، فنجد شروطها لدى الشهيد الأول مع تحقق الأمن للفقيه، واشتراط وجوب التحاكم إلى الفقيه. اذا مجمل النظرية ترتبط بعاملين، وجود فقيه ورع تتسم شخصيته بالعدل والعلم والقدرة على الاستنباط، وشرط آخر يتصل بالمكلف، فليس ثمة سلطة اذا لم تقتزن باستجابة المكلف، ومن هنا فالفقيه ليس سلطاناً قاهراً بالبيعة ولا مغلباً بالسلطة على غرار سلاطين العالم الإسلامي.

■ **بين النظرية الفقهية والواقع** أن النظرية الفقهية للمحقق الكركي تفرد دوراً موسعاً للفقيه، ما يجعل سلطة الفقيه لازمة بإزاء كل سلطة، بل متعالية عليها، وذلك لكون الفقيه هو الأجدر بممارستها، ولا سيما في إقامة العدالة والحدود وصلاة الجمعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من الأحكام التي تتصل بمجال السلطة.

استناداً إلى ذلك، ألا تتعارض هذه النظرية الفقهية مع السلطة القائمة، يوضح الدكتور غسان طه هذه الإشكالية في كتابه بالقول: "أننا وعبر العودة التاريخية إلى الوراء، نجد أنَّ هذه النظرية لم تكن لتقف في مواجهة السلطة القائمة أو أنها تعمل في مواجهة السلطة القائمة، وللدلالة على الأمر، نجد أنَّ الشهيد الأول الذي كان سابقاً في بلورة نظرية ولاية الفقيه، قبل المحقق الكركي، والذي خرجت النظرية في عصره إلى حيز التنفيذ. كان على قدر من المراعاة للسلطة القائمة وعدم استفزازها. ففي المعة الدمشقية، نجد لديه مثل هذه المدارة، فلفد ورد لديه حول دور الفقيه في مجال الحكم بين الناس، الجواز المشروط بالأمن، فهو يقول: "يجوز للفقهاء في حال الغيبة إقامة الحدود مع الأمن، والحكم بين الناس...ويأثم الراد عليه". ويكمل رؤيته بالقول: "وما يسري على هذه المراعاة هو موقف المحقق الكركي اذ لا نجد نظريته تتحرك وتخرج إلى حيز الواقع في موطنه الأصلي، وإنما بعد هجرته إلى العراق، وتابع أنصاري: المشاهد التي نراها اليوم في جامعات باريس، نيويورك، تكساس، نيو إنجلاند وكاليفورنيا تظهر أن الأمريكيين يرتكبون أفظع الجرائم ضد حق حرية التعبير المنصوص عليه في المادة 19 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. في هذا اللقاء، قال الشيخ علي خطيب، نائب رئيس المجلس الأعلى الإسلامي الشيعي في لبنان: نحن ندعم جهودكم في فضح الظلم الذي يجري على الإنسان وتبيين حقوق المظلومين، ونرحب بالتعاون بين منظمتمكم والمجلس الإسلامي الأعلى الشيعي في لبنان. أضاف الشيخ علي خطيب: أحداث غزة تكشف بوضوح أكاذيب المدعين الغربيين في دعم حقوق الإنسان، وحقوق الأطفال والنساء، التي كانوا يستخدمونها كوسيلة للضغط والاضطهاد علي العديد من الدول. كما قال نائب رئيس المجلس الأعلى الإسلامي الشيعي في لبنان: كشف هذه الجرائم الفظيعة بهذه الطريقة يتطلب جهداً جديداً لإطلاق رؤية جديدة في مفهوم حقوق الإنسان تؤدي إلى حماية حياة وحرية البشر. وفي الختام، قال خطيب: يجب أن نسعى لصياغة وثيقة جديدة بالتعاون المشترك بين نخب الأديان والمذاهب المختلفة تتجاوز المفاهيم الخاطئة للغرب.

العلم من شأنها أن توسع المدارك، وأن تفتح الذات على تنوع مصادر المعرفة الفقهية، ولا سيما في بعض أبوابها المتصلة بالفقه السياسي أو السلطاني خصوصاً لدى الحواضر الإسلامية التي تتصل بالمذاهب الأخرى، التي هي على صلة بواقع الحال جراء انتماء السلطات القائمة إلى هذه المذاهب. كما تتيح هذه الهجرة لعالم الدين، حرية التحرك وعدم تعرضه لضغط السلطات، وذلك بعد أن يحصل على الإجازة من علماء هذه الحواضر. وبطبيعة الحال، فإن تنوع مصادر المعرفة والانفتاح على الأحكام المتصلة بالسلطة، سوف توفر أيضاً القدرة على المطارحات الفكرية، ولا سيما عبر الربط والمقارنات والمقاربة مع التراث الفقهي للشيعة في مجال التعاطي مع السلطة القائمة، وبالإستناد إلى مصادر التشريع الأربعة لدى الشيعة. يقول الدكتور غسان طه في كتابه الإسهامات الوحودية للحواضر الدينية... المحقق الكركي نموذجاً: "إن رحلة المحقق الكركي إلى عواصم العالم الإسلامي لطلب العلم، تمثل بُعداً من أبعاد شخصيته الوحودية، وربما تشكلت أولاً من طبيعة نشأته في مدرسة الكرك ودورها التاريخي في احتضان تنوعات مذهبية وفكرية سبق للكركي أن استوعب تراثها التاريخي. وقد تعززت هذه الشخصية الوحودية بعد الرحلة إلى خارج الكرك للاستزادة في الدراسة وطلب العلم، الأمر الذي طبع هذه الشخصية بطابع الانفتاح على التنوعات الفقهية والتنوع في مصادر الحديث، فعدا المحقق الكركي يروي الحديث عن كبار مشايخ السنة، بعدما كان يصرح بأنه تلقاها بنفسه عن علماء كبار واستجازهم فيه".

■ **المحقق الكركي على خطى الشهيد الأول تأسيساً لنظرية ولاية الفقيه** شهدت الساحة الشيعية في بلاد الشام وبدايات القرن السادس عشر بروز اتجاه قوي وضغط نحو تمكين الفقيه من ممارسة ولايته، وقد سبقت التجربة في بلاد الشام مع الشهيد الأول التجربة في إيران إلا أن النتائج كانت مختلفة بينهما برغم هذا السبق الزمني للتجربة الأولى على التجربة الثانية، فالشاهد الأول قائد التجربة الأولى خلال هذه الفترة لم تتوفر له الظروف المناسبة ليقدم نموذجاً متكاملًا في ولاية الفقيه، أما في الساحة الأخرى فقد استطاع المحقق الكركي أن يقود العملية بتوفيق أكبر ولمدة زمنية لا بأس بها. فبعد عودته من مصر، وبينما كان في العراق، كانت تصله الرسائل من أمراء بلاد فارس للهجرة إلى تلك الديار، وبناء على استجابته لتلك الرسائل، أصبح المحقق الكركي شيخ الاسلام في زمن اسماعيل الصفوي، ونائباً للإمام في زمن طهماسب، الذي أصدر فرماناً شهيراً يعتبر أول نص ذي صياغة سياسية قانونية فقهية حديثة تبلور فيه رؤية واقعية لمبدأ ولاية الفقيه في وضوح نظري تام. لقد تضمن فرمان اعترافاً واضحاً بولاية الفقيه ونيابته عن المعصوم عليه السلام وبالتالي على وجوب طاعته وحرمة مخالفته، ولا يبدو النص - بالصيغة التي قدم فيها - توصيلاً من "الشاه" إلى المؤسسات والدوائر السلطوية في الدولة الصفوية وإنما يبدو أمراً تكليفاً موجهاً لكل الناس. ولم يكن فيه أي إشارة للسلطان أو موقعه في حق إصدار الأمر كما لم يشير إلى أي نوع من أنواع مشاركة الشاه للفقيه في الولاية على الأمة، وفي هذه الصيغة ما يكفي من الدلالة على حجم ولاية الفقيه التي أراد النص التأكيد عليها والتي تشمل فيمن تشمل الولاية على الشاه نفسه.

■ **رؤية المحقق الكركي لولاية الفقيه** يرى المحقق الكركي حدوداً موسعة لولاية الفقيه في بلاد الشام وبدايات القرن السادس عشر بروز اتجاه قوي وضغط نحو تمكين الفقيه من ممارسة ولايته، وقد سبقت التجربة في بلاد الشام مع الشهيد الأول التجربة في إيران إلا أن النتائج كانت مختلفة بينهما برغم هذا السبق الزمني للتجربة الأولى على التجربة الثانية، فالشاهد الأول قائد التجربة الأولى خلال هذه الفترة لم تتوفر له الظروف المناسبة ليقدم نموذجاً متكاملًا في ولاية الفقيه، أما في الساحة الأخرى فقد استطاع المحقق الكركي أن يقود العملية بتوفيق أكبر ولمدة زمنية لا بأس بها. فبعد عودته من مصر، وبينما كان في العراق، كانت تصله الرسائل من أمراء بلاد فارس للهجرة إلى تلك الديار، وبناء على استجابته لتلك الرسائل، أصبح المحقق الكركي شيخ الاسلام في زمن اسماعيل الصفوي، ونائباً للإمام في زمن طهماسب، الذي أصدر فرماناً شهيراً يعتبر أول نص ذي صياغة سياسية قانونية فقهية حديثة تبلور فيه رؤية واقعية لمبدأ ولاية الفقيه في وضوح نظري تام. لقد تضمن فرمان اعترافاً واضحاً بولاية الفقيه ونيابته عن المعصوم عليه السلام وبالتالي على وجوب طاعته وحرمة مخالفته، ولا يبدو النص - بالصيغة التي قدم فيها - توصيلاً من "الشاه" إلى المؤسسات والدوائر السلطوية في الدولة الصفوية وإنما يبدو أمراً تكليفاً موجهاً لكل الناس. ولم يكن فيه أي إشارة للسلطان أو موقعه في حق إصدار الأمر كما لم يشير إلى أي نوع من أنواع مشاركة الشاه للفقيه في الولاية على الأمة، وفي هذه الصيغة ما يكفي من الدلالة على حجم ولاية الفقيه التي أراد النص التأكيد عليها والتي تشمل فيمن تشمل الولاية على الشاه نفسه.

■ **دراسته في الحواضر الدينية** من أجل الاستزادة في العلم، قصد المحقق الكركي العواصم الإسلامية وأخذ عن علمائها، سافر إلى الشام عام 903هـ ثم حل في مصر عام 905هـ وبيت المقدس ومكة بعد أن أخذ عن علماء تلك العواصم، ثم رجع من مصر وتوجه إلى بلاد العراق وقد استقر بداية في إيران عام 916هـ وقد سبق للشاهد الأول أن قام بالسفر إلى تلك العواصم لأخذ العلم عن علمائها، ليس من شك، أن الهجرة الى مراكز

تعدُّ المدارس الدينية الإسلامية، ولا سيما المدارس لدى المسلمين الشيعة، حاضنات ثقافية ودينية نشأت في المدن والقرى والبلدات، واحتضنت علماء دين أفردت لهم كتب التاريخ صفحات ناصعة، إذ قدموا اضافات نوعية في حقل المعرفة الدينية بأشكالها العقائدية والأصولية والفقهية المختلفة.

وتُعد بلدة الكرك، حاضرة من هذه الحواضر، إذ احتضنت مدرستها الدينية منذ قرون خلت، وباتت فيما بعد حاضرة لدى المسلمين الشيعة، اضافة إلى حواضر أخرى كجزين وميس الجبل وجباع وغيرها. وقد لمع في هذه المدارس، علماء بارزون شكلوا علامات فارقة وانعطافات لافتة في ميدان الانتاج المعرفي والعلمي، ولا سيما على المستوى الفقهي المتصل بوظيفة وصلاحيات الفقيه في حدودها ومداها بعد عصر الغيبة الكبرى، والمحقق علي بن عبد العالي الكركي كان من بين هؤلاء، برز كعالم دين وكمحقق وكداعية. وقد كان مجلياً في حقل الأحكام والرسائل الفقهية. هذه المقالة وبمناسبة الذكرى السنوية لرحيله محاولة متواضعة لتسليط الضوء على سيرة حياة المحقق الكركي بما تتضمن من تجربة خاصة لولاية الفقيه.

■ **المدارس الدينية الشيعية في لبنان** عانى الشيعة في لبنان في العصر العثماني من عسف السلطة منذ القرن السادس عشر، وانتقال الحكم في البلاد من أيدي المماليك إلى أيدي العثمانيين، وبالرغم من التعصب العثماني ضدهم، فإنهم استمروا ببناء نهضتهم الفكرية والثقافية داخل مجتمعاتها، دون تلقي أية خدمات من أي جمعية أو جهة حكومية أو دولة خارجية، وكانت الحوزة العلمية من أهم مؤسساتهم الخاصة، ونظامهم الخاص في الدعم الاجتماعي هو توزيع أموال (الخُمس). وهذا النظام كفيل بأن يساهم في تحسين الأوضاع الاجتماعية لدى بعض الفقراء من الشيعة.

من هنا نرى أنَّ هذا النظام الفقهي الخاص كان يقيهم شر العوز، ويغنيهم عن المساعدات الخارجية، وهذا ما يفسر استمراريتهم رغم الاضطهاد الذي مورس ضدهم طيلة ما يقارب الخمسة قرون. حتى وهم في أشد الظروف قسوة عليهم، فقد بنوا العديد من المدارس الكبرى في قرى جبل عامل والبقاع، فقد عرفت الطائفة الشيعية بين أواخر القرن الرابع عشر وأواسط القرن السابع عشر الميلاديين، عدة مدارس مهمة، خرجت بعضاً من ألمع علمائها.

عانى الشيعة في لبنان في العصر العثماني من عسف السلطة منذ القرن السادس عشر، وانتقال الحكم في البلاد من أيدي المماليك إلى أيدي العثمانيين، وبالرغم من التعصب العثماني ضدهم، فإنهم استمروا ببناء نهضتهم الفكرية والثقافية داخل مجتمعاتها، دون تلقي أية خدمات من أي جمعية أو جهة حكومية أو دولة خارجية، وكانت الحوزة العلمية من أهم مؤسساتهم الخاصة، ونظامهم الخاص في الدعم الاجتماعي هو توزيع أموال (الخُمس). وهذا النظام كفيل بأن يساهم في تحسين الأوضاع الاجتماعية لدى بعض الفقراء من الشيعة.

من هنا نرى أنَّ هذا النظام الفقهي الخاص كان يقيهم شر العوز، ويغنيهم عن المساعدات الخارجية، وهذا ما يفسر استمراريتهم رغم الاضطهاد الذي مورس ضدهم طيلة ما يقارب الخمسة قرون.

حتى وهم في أشد الظروف قسوة عليهم، فقد بنوا العديد من المدارس الكبرى في قرى جبل عامل والبقاع، فقد عرفت الطائفة الشيعية بين أواخر القرن الرابع عشر وأواسط القرن السابع عشر الميلاديين، عدة مدارس مهمة، خرجت بعضاً من ألمع علمائها.

وفقاً لتقرير وكالة أنباء أهل البيت عليه السلام - ابنا - التقى أمين أنصاري، الأمين العام لمنظمة الشباب لحقوق الإنسان، بالشيخ علي خطيب، نائب رئيس المجلس الأعلى الإسلامي الشيعي في لبنان، خلال زيارته للبنان وأجرى معه محادثات. خلال اللقاء، وفي إشارة إلى الأحداث الأخيرة في الجامعات الأمريكية، قال أنصاري: الأمريكيون يعتبرون أنفسهم دائماً مدافعين عن حقوق الإنسان، لكن لقد ثبت عارهم مرة أخرى أمام لعالم.

وأضاف: من الثمار الهامة لمحمة "طوفان الأقصى"، الوعي غير المسبوق لضمائر الطلاب في الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية. يرى العالم كله أن أمريكا والغرب، الذين يدعون التقدم في الحرية وحقوق الإنسان على بقية دول العالم، يفرضون أتقيج أنواع الحصار الإعلامي والمعلوماتي ضد مواطنيهم وطلابهم لإخفاء الحقائق عنهم ويحاولون من خلال التهديد تعطيل وعي الشباب.

## الشيخ الخطيب في لقاء مع أمين أنصاري؛ الأمين العام لمنظمة الشباب لحقوق الإنسان رحب بالتعاون بين تلك المنظمة والمجلس الإسلامي الأعلى الشيعي في لبنان



الأفاق